

معالم الرحمة في أخلاق النبي ﷺ

إعداد

الباحث: عراقي محمود سيد حامد

إمام وخطيب بأوقاف القاهرة

من أبحاث المؤتمر الدولي
نبي الرحمة محمد ﷺ

المنعقد في الفترة ٢٣ – ٢٥ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢ – ٤ أكتوبر **2010**م
برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز – حفظه الله–

والذي نظمته
الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها (سنن)



www.sunnah.org.sa



المقدمة

الحمدُ لله رَبِّ العالمين، الرَّحمن الـرَّحيمِ، الحنـان المنـان الـرءوف الـرحيم، الحليم العَفوِّ، أعدلِ العادلين، الذي حرَّم الظلم على نفسه، وأرحمِ الراحمين، ذي الرحمة الواسعة، التي وسعت كل شيء، والتي سبقت غضبه، والتـي كتبهـا عـلى نفسه سبحانه جَلَّ في عُلاه.

فما أعظمه من ربٍّ جليل، له الكمال المطلق الذي يليق بذاته المقدسة؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وما أرحمه من إلهٍ حليم كريم، له الأسماء الحسنى والصفاتُ العُلى!

خَلَقَ الخَلْقَ ليرحمهم؛ قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦- ٢٨].

ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، ليُخرج العِباد من الظلمات إلى النور، وأرسل خاتم النبيين وإمام المرسلين نبيَّه وصَـفِيَّه وحبيبـه وخليلـه محمـدًا ﷺ

رحمة لجميع العالمين.

ذلكم هو رسول الله ﷺ، أرحم الخَلق بالخَلق؛ أول من تنشق عنه الأرض، أول شافع، وأول مُشفَّع، وأول من يَجوز على الصراط، وأول من يدخل الجنة، صاحب الحوض المورود، واللواء المعقود، والمقام المحمود، صاحب الغُرَّة والتحجيل، المذكور في التوراة والإنجيل، المؤيَّد بجبريل، البشير النذير، والسراج المنير، خير الخلق في طفولته، وأطهر المُطهرين في شبابه، وأنجب البشرية في كهولته، وأزهد الناس في حياته، وأعدل القضاة في قضائه، وأشجع قائد في جهاده.

اختصه ربُّه بكل خلق نبيل؛ وطهَّره من كل دَنَس، وحفظه من كل زلل، وأدبه فأحسن تأديبه، وجعله على خلق عظيم.

وجمع فيه صفات الجمال والكمال البشري، وتألَّقت روحُه الطاهرة بعظيم الشمائل والخِصال، وكريم الصفات والأفعال، حتى بهرت سيرته القريب والبعيد، وتملَّكت هيبَته العدوَّ والصديقَ، وقد صوَّر لنا هذه المشاعرَ شاعرُه حسان بن ثابت رضي الله عنه أبلغَ تصوير؛ فقال:

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي * وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ * كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ[1]

---

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه – (ص ١٠)– عبد الرحمن البرقوقي– المكتبة=

فكان من سمات الكمال التي تحلَّى بها ﷺ: «خُلُقُ الرحمة»، فقد وهبه الله قلبًا رحيمًا، يرقُّ للضعيف، ويحنُّ على المسكين، ويعطف على الخلق أجمعين، حتى صارت الرحمة له سجيَّة؛ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله، وأصحابه وأزواجه وأتباعه إلى يوم الدين.

فمن أنكر هذه الحقائق ودفعها بعد وصولها إليه بيضاء نقية بحسن عَرْض وجميل طرح؛ فإنما ينكث على نفسه، ولن يضر الله شيئًا، ولن ينال من قدر الرحمة المهداة ﷺ قليلًا ولا كثيرًا.

وقد وقع بالثلب في عرضه ﷺ من لم يعرفوه، وآذوا أتباعه بانتقاصه، مع أنه ﷺ خير مَن وَطِئ الثَّرَى، وما جاء إلا لهدايتهم وإنقاذهم، وما أرسل إلا رحمة لهم، وللعالمين أجمعين.

وقد نَافَحَ المسلمون عن عِرض نبيِّهم ﷺ حِيال هذه الهجمة الشرسة التي لا مُسوِّغ لها من دين أو عقل.

وقد استشعر القائمون على الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها ضرورة إيجاد نشاط علميٍّ يتصف بالتأصيل الشرعي، والمنطق المقنع، في أهم جوانب سيرته ﷺ، فدَعَت إلى إقامة مؤتمر دولي، موضوعه: «نبي الرحمة محمد ﷺ».

=التجارية الكبرى- ١٣٤٧هـ- ١٩٢٩م- المطبعة الرحمانية- مصر.

وقد منَّ الله تعالى عليَّ بالمشاركة بهذا البحث، الذي هو تحت عنوان: (**معالم الرحمة في أخلاقه ﷺ**)، محاولةً مني أن أُسهِم في الذَّبِّ عن عِرض نبيي ﷺ طلبًا لشفاعته، وأن أحشر تحت لوائه، وفي زمرته، ولأُبرز فيه للعالَمَ شيئًا ولو يسيرًا مما كان عليه ﷺ من رحمة، تجلَّت في محاسن أخلاقه، ولدعوة أتباعه لأن يقتربوا من شمائله ﷺ أكثر؛ حتى يَحسُن لهم اتباعه؛ إذ لا سبيل مُوصِّلةً إلى الجَنَّة إلا ذاك.

وهذا جهدُ المقل؛ فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت أو قصَّرتُ فمن نفسي ومن الشيطان، وأسأل الله ألا يحرمني من الأجر، إذ اجتهدتُ وسعيتُ في هذا الغرض النبيل.

وقد قسَّمت- بحول الله وتوفيقه- البحث إلى أربعة مباحث:

عقدت المبحث الأول لبيان تمسكه ﷺ بمكارم الأخلاق ودعوته الخلق إليها، ورأيت لزامًا أن أعرِّف بالخلق، وأن أبين أقسام الأخلاق، وأن أظهر أهمية حسن الخلق، ثم خلصت لخصائص أخلاقه ﷺ، وحثه على التمسك بمكارم الأخلاق.

وكان المبحث الثاني لإلقاء الضوء على وصف رحمته ﷺ، وبيان أقسامها، والآيات التي أشارت إلى معالم الرحمة في أخلاقه ﷺ.



أما المبحث الثالث فبيَّنتُ فيه رحمته ﷺ بأمته، ثم تعرَّضت لطرف من رحمته ﷺ بالحيوان، ثم بالكافرين، ثم بالجن.

والمبحث الرابع خصصته لبيان وجوب طاعته والاقتداء به ﷺ وبأخلاقه، وبخاصة رحمته ﷺ، وآثار ذلك علينا في الأولى والآخرة إن فعلنا.

وأخيرًا: ختمت البحث بخاتمة وتوصيات أظهرت فيها مدى احتياج العالم إلى الإسلام وتطبيق مبادئه، واستلهام ذلك من أعظم الخلق أجمعين، سيد الأولين والآخرين ﷺ، وأنَّ الأمة لو تمسَّكت ببعض أخلاقه، وعضَّت على ما دعا إليه من الأخلاق لفتحت العالم، ولدخل الناس في دين الله أفواجًا الآن، كما دخلوا أيامه ﷺ لما رأوا من أخلاقه وزهده وصدقه وحبه لهدايتهم، فيسعد العالم بعد شقائه، ويهتدي بعد ضلاله، ويفوز بالسعادتين، وأن المسلمين إن لم يفعلوا فهم حَجر عثرة في طريق دخول الناس في الإسلام، وسيسألهم الله تعالى عن ذلك.

* * *

المبحث الأول

تمسكه ﷺ بمكارم الأخلاق ودعوته الخلق إليها

أولًا: تعريف الخُلُق:

قال ابن منظور: «الخُلُق، بضم اللام وسُكونها: الدِّين والطَّبْع والسَّجِيَّة»(١).

وقال الراغب الأصفهاني: «الخَلق والخُلق في الأصل واحد... لكن خُصَّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المُدركة بالبصر، وخُصَّ الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة»(٢).

وقال الغزالي: «... فالخُلُق: عبارة عن هيئةٍ في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة»(٣).

هذا هو تعريف الأخلاق بصفة عامة، أما **الأخلاق في الإسلام** فهي المبادئ والقواعد المُنظِّمَة لسلوك المسلمين مع الخالق والمخلوقين(٤).

---

(١) «لسان العرب» (١٠/ ٨٥)، دار صادر- بيروت، الطبعة الأولى.

(٢) «المفردات في غريب القرآن» (ص ١٥٨)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان.

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٥٣) دار المعرفة، بيروت.

(٤) ينظر «الأزمة الفكرية المعاصرة، تشخيص ومقترحات وعلاج»- طه جابر العلواني (القاهرة: إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٢)، (ص ١٦٧).



ثانيًا: أقسام الأخلاق:

ليست الأخلاق جميعها جبلية، وليست أيضًا كلها كسبية.

قال ابن القيم: «فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخُلق كسبيًّا، أو هو أمر خارج عن الكسب؟ قلت: يمكن أن يقع كسبيًّا بالتخلق والتكلُّف، حتى يصير له سَجِيةً ومَلَكَة»(١).

واستدل على ذلك بأن النبي ﷺ قال لأشج عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ وَالأَنَاةُ**». قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: «**بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا**». قَالَ: «**الحَمْدُ لله الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ**»(٢).

ثم قال: «فدلَّ على أن مِن الخُلُق ما هو طبيعة وجِبلَّة، وما هو مُكتسب»(٣).

فبيَّن رحمه الله أن الأخلاق تنقسم إلى قسمين: **أخلاق جبلية، وأخلاق مكتسبة.**

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣١٥)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، تحقيق: محمد حامد الفقي.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥) من حديث زارع بن عامر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٥٢٢٥).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣١٥).

ويشهد أيضًا أن من الأخلاق ما هو مُكتسب: قوله ﷺ: «**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ**»[1].

وتنقسم أيضًا من حيث علاقة صاحبها بغيره إلى قسمين:

أخلاقه مع الله تعالى، وأخلاقه مع عباده.

فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[2].

قال ابن رجب: «فهذه الوصيةُ وصيةٌ عظيمة جامعة لحقوق الله وحقوق عباده»...

إلى أن قال: «قوله ﷺ: «**وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»: هذا من خصال التقوى، ولا تتمُّ التقوى إلا به، وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه، فإنَّ كثيرًا من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنصَّ له على الأمر بإحسان العشرة للناس، فإنَّه كان قد بعثه إلى اليمن مُعلِّمًا لهم ومُفقِّهًا وقاضيًا، ومَن كان كذلك فإنه يحتاج إلى مخالقة الناس بخلق حسن ما لا يحتاج

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٨٧).

إليه غيره مما لا حاجة للناس به ولا يخالطهم، وكثيرًا ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته- إهمالُ حقوق العباد بالكلية أو التقصير فيها، والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جدًّا لا يقوى عليه إلا الكُمَّل من الأنبياء والصديقين»[1].

وتنقسم كذلك إلى ما هو حسن، وما هو قبيح.

فالأخلاق الحسنة: هي حال للنفس جبلية أو مكتسبة، يصدر عنها سلوك إنسانيٌّ يستحسنه الشرع، وتقبله النفوس البشرية السليمة، فيكون محمودًا؛ لأنه يرجع بالخير والنفع على الفرد أو الجماعة، وتُسمَّى «مكارم الأخلاق، أو محاسن الأخلاق، أو الأخلاق الحميدة». ومثالها: الصدق، الأمانة، الوفاء بالوعد، بر الوالدين، الإحسان، التراحم...

أما الأخلاق السيئة: فهي حال للنفس جبلية أو مكتسبة، يصدر عنها سلوك إنساني يستقبحه الشرع، وتأنف منه النفوس البشرية السليمة، فيكون مذمومًا؛ لأنه يرجع بالشر والضرر على الفرد أو الجماعة، وتسمَّى «رذائل الأخلاق، أو مساوئ الأخلاق، أو الأخلاق الذميمة». ومثاله: الكذب، الخيانة،

---

(١) انظر «جامع العلوم والحكم» (ص ١٥٨- ١٨١)، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ.

الغش، البخل، خلف الوعد، الشحناء والتباغض...

وقد ثبت باستقراء نصوص الشرع المُشرَّف، أن المُعتبر من الأخلاق هو ما كانت حسنة دون غيرها؛ لذا جاء الأمر باكتسابها والاتصاف بها، والحث على التخلق بها، ووعد صاحبها بالثواب الجزيل، وثبت أيضًا: النهي عن ضدها من الأخلاق الذميمة الرديئة، والتحذير منها، وإيعاد مرتكبها بالعقاب الأليم إن لم يتب منها.

ولا شكَّ أن الأخلاق من أعمال الجوارح، كما أنها من أعمال القلوب؛ فالإيمان كما يُعرِّفه أهل السنة والجماعة: اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح.

ثالثًا: أهمية حسن الخلق:

إذا حَسُنت أخلاقُ العبد واستقامت وصلحت في كل ما يصدر عن صاحبها من أقوال وأفعال- كانت دليلًا واضحًا، وبرهانًا ساطعًا على قوة إيمانه، وعلى سلامة وجدانه، وعلى أنه لا يعمل إلا وَفْق ما يرضي ربه سبحانه.

لذلك كان السلف الصالح يعُدّون الدين هو الخُلُق، والخلق هو الدين.

وقد قال ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤]: «**دين عظيم**»[١].

(١) انظر «الكشف والبيان» للثعلبي النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،=

ويقول الإمام ابن القيم: «الدِّينُ كلُّه خُلُق؛ فمن زاد عليك في الخلـق- زادَ عليك في الدين»[1].

ولما سُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: «... **فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ**»[2].

أي: كان متمسكًا بآداب القرآن وأوامره ونواهيه وأحكامه وتوجيهاته.

وإنه لمن الحقائق التي اتفق عليها جميع العقلاء: أن الأخلاق الكريمـةَ هـي ثمرةُ الإيمان القويِّ الصادق، وأن الأخلاقَ السيئةَ هي وليدةُ ضعف الإيمان.

ولقد حضَّت الشريعة الإسلاميةُ أَتْبَاعَها على التمسك بالأخلاق الفاضلة، وحذَّرتهم من الوقوع والاقتراب من رذائلها، وبيَّنت لهم أن حُسْنَ الخلـق يرفـع صاحبه إلى أعلى الدرجات، وأن سوء الخلق يهوي بصاحبه إلى أسفل الدَّرَكَات.

وأوجبت تزكية النفس، وبينت أن بدايتها ونهايتها: التوحيـدُ، ويـدخل في ذلك تطهير النفس من أمراضـها، ومنعهـا مـن ارتكـاب المحرمـات، وإقامتهـا

=١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م، الطبعة الأولى، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتـدقيق الأستاذ: نظير الساعدي.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦).

للطاعات، وحملها على فعل الخيرات التي تعود بالنفع على الفرد والمجتمع.

والأمم التي تتمسك بمكارم الأخلاق، وتعتنق الفضائل- لابد أن تصل إلى ما تَصْبُو إليه من سَلَام ورخاء وسعادة في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا** ﴾[الكهف: ٣٠].

أما الأممُ التي تَنْهَار فيها الأخلاقُ الحَسَنة، وتشيع فيها الفاحشة، ويتعامل أفرادُها بمَرْذُول الأخلاق- فإنَّ مصيرهم حتمًا سيؤول إلى الهَوَان والضعف، وسوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

وللأخلاق الفاضلة في دين الله تعالى المَكَانة السَّامقة، فقد سئل النبي ﷺ عن البر- وهو جماع الخير- فقال: «**حُسْنُ الخُلُقِ**»(١).

وحين سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجَنَّة، قال: «**تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ**»(٢).

وأعلن ﷺ أنَّ «**أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»(٣).

قال المباركفوري: «لأنَّ كمالَ الإيمان يُوجب حُسن الخلق والإحسانَ إلى

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «صحيح غريب».

(٣) أخرجه الترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».



كافَّة الإنسان»(1).

وبيَّن ﷺ أن المؤمن يُدرك به من سبقه من العُبَّاد؛ قال ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»(2).

ويكون مِن أحبِّ الخلق وأقربِهم في جنات النعيم إلى سيد العالمين، الرحمةِ المهداة، أفضل الناس خَلْقًا وخُلُقًا؛ فعلى قَدْر تشبهه بخُلُقه ﷺ، واتباعه لكريم خِلاله، واقتفائه لجميل آثاره يكون قربه منه؛ قال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا**»(3).

وكيف لا يأمر ﷺ أمته بأن يحسنوا أخلاقهم، وقد قال عن نفسه: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ**»(4)، وفي رواية: «**صَالِحَ الأَخْلَاقِ**»(5).

قال المناوي: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ**»: أي: أُرسلت، «**لأُتَمِّمَ**»: أي: لأجل أن أكمل

---

(1) «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» (7/ 299)، دار الكتب العلمية، بيروت.

(2) أخرجه أبو داود (4798) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (4798).

(3) أخرجه الترمذي (2018) من حديث جابر رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

(4) تقدم قريبًا.

(5) أخرجه أحمد (2/ 381) حديث (8939) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الأرنؤوط: «صحيح».

«صَالِحَ»، وفي رواية بدله: «مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ» بعدما كانت ناقصة، وأجمعها بعد التفرقة»[1].

فحدَّد بهذه الكلماتِ الرسولُ الأكرمُ ﷺ الغايةَ من بعثته: من أنَّه ما بعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق في نفوس أمته والناس أجمعين، ويريد للبشرية أن تتعامل بقانون الخلق الحسن الذي ليس فوقه قانون.

فهي حُلَّة تقصُر دونها الحُلَل، وسِتر لا يُغني عنه سِتر، وهل افترق الإنسان عن حيوان الغابِ وسِباع الدواب إلا بالأخلاق؟!

وهي تمتزِج بتصرُّفات الإنسان كلِّها، في سلوكه جميعِه، وأحواله كلِّها، في جِدِّه وهزلِهِ، وفرَحه وحزنِه، ورضاه وسَخَطه، وخطئِه وصوابِه.

وجوامعُ الأخلاق التي دعا إليها ﷺ تَسْري في كيان الإسلام كله بجوامع كَلِمه، سواء في ذلك ما كان في الأصول أو كان في الفروع، وسواء منها ما كان في التَّوحيد والعقائدِ، أو كان في العبادةِ والشَّريعة، وما كان في معاملةِ الخالقِ جلَّ وعلا، أو معاملةِ المخلوقين، حتَّى في إقامةِ حدودِ الشَّرع، وحتَّى مع الحيوان في قتلِه أو ذبحِه.

---

(١) «فيض القدير» (٢/ ٧٢٦)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.



وقد جسَّد ﷺ كلَّ ذلك وبلغ فيه الغايةَ؛ فاستحقَّ أن يُزكِّيه ربُّه سبحانه بهذا الثناء العاطر: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

رابعًا: خصائص أخلاقه ﷺ مع أمته:

مكارمُ الأخلاق صفةٌ من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، بها تُنال الدرجات، وتُرفع المَقَامات، والنبيُّ ﷺ - كـان أحسـنَ النَّـاس خَلْقًـا وخُلُقًـا، واجتمع فيه من أوصاف المدح والثناء ما تفرَّق في غيره، فقد صَـانَه اللهُ سـبحانه وحَفِظَه مِن أدنى وصفٍ يُعابُ به صاحبُه، تفضُّـلًا منـه سـبحانه ومِنَّـةً، وقطعًـا لألسنةِ أعدائه الشانئين له الذين يتربصون به، ويقفون في طريق دعوتـه مُحـذرين منه، يَودُّون هَفْوة ينفُخُون فيها؛ ليفرقوا النـاس عنـه ويعيبـوه بهـا، ولكـن أنَّـى لهم ذلك!

فقد نشأ ﷺ مُتحَلِيًا بكل خلق كريم، مُبتعدًا عن كل وصف ذميم، فهـو أعلم الناس وأنصـحهم، وأفصـحهم لسـانًا، وأقـواهم بيانًـا، وأكثـرهم حيـاءً، يُضرب به المثل في الأمانة والصدق والعفاف.

أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه؛ فكان لذلك أرجح الناس عقـلًا، وأكثـرهم أدبًـا، وأوفرهم حلمًا، وأكملهم قـوة وشـجاعةً وشـفقةً، وأكـرمهم نفسًـا، وأعلاهـم منزلةً، وبالجملة، فكل خُلُقٍ فاضل فله ﷺ منه القسط الأكبر والحـظ الأوفـر،

وكل وصف مذموم فهو أَسْلَم الناس منه وأبعدهم عنه؛ شهد لـه بـذلك العـدوُّ والصديق.

ولما بعثه اللهُ سبحانه بالنور والهدى إلى الثَّقَلين الجنِّ والإنس- زاده الله قوة في هذه الخصال الحميدة إلى قُوَّتِه؛ وقد نوَّه الله سبحانه بتفضله وامتنانه على نبيه وخليله محمد ﷺ في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

فأعطاه ربُّه جلَّ في علاه السيادة البشرية على العالم؛ قـال ﷺ: «**أَنَـا سَـيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ**»[١].

قال العِزُّ بن عبد السـلام: «السـيِّدُ: هـو مَـنِ اتَّصَـفَ بالصـفات العَلِيِّـة، والأخلاق السَّنِيَّة، وهذا مُشعرٌ بأنه أفضلُ منهم في الـدارين، أمَّـا في الـدنيا فلِـمَا اتصف به من الأخـلاق العظيمـة، وأمَّـا في الآخـرة فـلأنَّ الجـزاء مُرتَّـبٌ عـلى الأخلاق والأوصاف، فإذا فَضَلَهم في الدنيا في المناقـب والصـفات، فَضَـلَهم في

(١) أخرجه ابن ماجـه (٤٣٠٨) مـن حـديث أبي سـعيد الخـدري ﷺ، وصـححه الألبـاني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٧٧).

الآخرة في المراتب والدرجات، وإنما قال ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**»؛ لتعرف أمته منزلته من ربه ﷻ»[1].

وقد خَصَّ اللهُ جلَّ وعَلَا نبيَّه محمدًا ﷺ بآية جمعت له محامدَ الأخلاق ومحاسن الآداب؛ فقال سبحانه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤].

وقال عبدُ الله بن الزبير رضي الله عنهما: «**أَمَرَ اللهُ نبيَّه ﷺ أن يأخذ العفوَ من أخلاق الناس**»[2]، يعني: قوله تعالى: ﴿ **خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وعن جعفر الصادق أنه قال: «ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها»[3].

ومن خصائص أخلاقه ﷺ مع أمته:

إيثاره ﷺ أمته على نفسه؛ حيث قال ﷺ: «**لكل نبيٍّ دعوةٌ قد دعا بها أمته، وخبَّأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة**»[4].

(١) «بداية السول في تفضيل الرسول» (ص ٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤٤).

(٣) انظر «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (٣/ ٣٢٧).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابن رجب بعد أن ساق هذا الحديث وغيره من الروايات: «والمراد من هذه الأحاديث- والله أعلم- أنَّ كلَّ نبيٍّ أُعطِي دعوةً عامَّة شاملة لأمته، فمنهم مَن دعا على أمته المُكذِّبين له فَهَلَكوا، ومنهم مَن سأل كثرتهم في الدنيا كما سأله سليمان، واختص النَّبيُّ بأن ادَّخر تلك الدعوة العامة الشاملة لأُمَّته شفاعةً لهم يوم القيامة»[1].

ومنها: أنه جاء بإتمام مكارم الأخلاق.

حيث قال: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**»[2].

قال المناوي: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ**»: أي: أُرسلت، «**لأُتَمِّمَ**»: أي: لأجل أن أكمل «**صَالِحَ**»، وفي رواية بدله: «**مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**» بعدما كانت ناقصة، وأجمعها بعد التفرقة»[3].

---

(١) «فتح الباري» لابن رجب الحنبلي- دار ابن الجوزي- السعودية/ الدمام- ١٤٢٢هـ- الطبعة الثانية، تحقيق: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، وذكر هذا الحديث السيوطي في «الخصائص الكبرى» (٢/ ٣٣١) تحت باب (اختصاصه ﷺ بالمقام المحمود، وبأن بيده لواء الحمد، وبأن آدم فمن دونه تحت لوائه، وبأنه إمام النبيين يومئذ وخطيبهم وقائدهم، وبأنه أول شافع وأول مشفع...).

(٢) تقدم قريبًا.

(٣) «فيض القدير» (٢/ ٧٢٦)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ،=

ومنها: لينُه في الله، وأنه لم يغضب لنفسه قط؛ ومجازاته السيئة بالحسنة:

فقابل ﷺ كل ما لقيه من أذى قومه وغيرهم في وطنه وغربته- بسمو أخلاقه؛ وهو ما يدل على كريم خليقته، وحسن سجيته، ونصحه لأمته، وحرصه على إيمان عشيرته، وقيامه بأعباء رسالته في نصرة دين الله، وإعلاء كلمته؛ فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «**مَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ، حَتَّى يُنْتَهَكَ مِنْ حُرُمَاتِ الله، فَيَنْتَقِمَ لله**»[(١)].

قال الخضري: «وقد تضافرت الأخبار على اتصافه عليه الصلاة والسلام بنهاية هذه الأوصاف، فما من حليم إلا عُرفتْ منه زلّة، وحُفظت عنه هفوة، ونبيُّنا ﷺ لا يزيد مع كثرة الإيذاء إلا صبرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا»[(٢)].

خامسًا: شهادات المُخالطين له ﷺ:

يقول خادمُه أنسُ بن مالك رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ أحسن الناس خُلُقًا»[(٣)].

=١٩٩٤م.

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥٣).

(٢) «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» (ص ٢١٣، ٢١٤) تحقيق: هيثم هلال- دار المعرفة- بيروت، لبنان- الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٦٥٩).

قال المناوي: «لحيازته جميع المحاسن والمكارم وتكاملها فيه، ولما اجتمع فيه من خصال الكمال وصفات الجلال والجمال ما لا يحصره حدٌّ ولا يحيط به عَدٌّ»[1].

ومعلوم أن الخدم والغلمان تقع منهم الأخطاء والهفوات كثيرًا؛ ومع ذلك يُعامل النبي ﷺ خادمَه هذه المعاملة الفذَّة التي قال عنها أنس: «**خَدَمْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَالله مَا قَالَ لِي أُفًّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا! وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا!**»[2].

وتقول زوجُه صفيةُ بنت حُيَي رضي الله عنها: «**ما رأيت أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ**»[3].

وعائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلقه ﷺ قالت: «... **فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ**»[4].

قال ابن كثير: «ومعنى هذا أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجيةً

---

(١) «فيض القدير» (٥/ ٩٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩) واللفظ له.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨/ ٥٧٣)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٤٠٦)، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وأبو يعلى باختصار، ورجالهما ثقات، إلا أن الربيع ابن أخي صفية بنت حيي لم أعرفه».

(٤) أخرجه مسلم (٧٤٦).

له وخُلقًا تَطَبَّعَه، وترك طبعه الجِبلِّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا ما جبَلَه اللهُ عليه من الخُلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خُلقٍ جميل». اهـ.[1].

ولخَّص جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي حالهم قبل بعثته ﷺ وما جاء به فقال: «**أيُّها المَلِكُ! كُنَّا قومًا أهلَ جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسِيء الجِوار، ويأكل منا القويُّ الضعيفَ، فكنا على ذلك حتى بعث اللهُ إلينا رسولًا مِنَّا، نعرف نسبَه وصِدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام...**»[2].

ولقد سأل هرقلُ عظيمُ الروم أبا سفيان عمَّا يأمرهم به ﷺ: فقال

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨٩) الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، دار طيبة للنشر والتوزيع، تحقيق: سامي بن محمد سلامة.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠١) حديث (١٧٤٠)، وقال الأرنؤوط: «إسناده حسن».

أبو سفيان: «**يَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ**»[1].

سادسًا: حثُّ الرسول ﷺ على التمسك بمكارم الأخلاق:

تخلَّق النبيُّ ﷺ بأخلاق القرآن الذي نزل عليه حتى نال المنزلة العليا من حسن الخلق؛ فسَمَتْ رُوحُه وعَلَت أخلاقُه.

وحضَّ أُمَّته على معاملة الناس جميعهم معاملة حسنة بهذه الوصية الجامعة؛ فقال: «**اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[2].

وقال الإمام ابن القيم: «حُسْنُ الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل...، ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة». اهـ. باختصار[3].

وقال ﷺ: «**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»[4].

فجَعَلَ المسلمَ الحقَّ هو من يَسْلم المسلمون من قوله وفعله.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وقال: «حسن صحيح».

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠٨).

(٤) أخرجه البخاري (١٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وبيَّن ﷺ أن التقوى وحسن الخلق من أكثر ما يدخل بهما العبدُ الجنَّةَ.

إذ تقوى الله تُصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلـق يُصـلح مـا بـين العبد وبين الخلق؛ فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو النـاس إلى محبته.

ولما سأله النَّوَّاسُ بن سَمْعَان رضي الله عنه عن الـبر والإثـم، قـال: «**الـبِرُّ: حُسْـنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**»[1].

قال ابن القيم تعليقًا على هـذا الحـديث: «فقَابَـلَ الـبر بـالإثم، وأخـبر أن حسن الخلق والإثم حواز الصدور، وهذا يدل على أن حسن الخلـق هـو الـدين كله، وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام»[2].

ورتَّب الأثرَ العظـيم والثـواب الجزيـل عليـه؛ فقـال: «**إِنَّ المُـؤْمِنَ لَيُـدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ**»[3].

والسِّرُّ يَكمُن في أن صاحب الخلق الحسن أُعطي هذا الفضل العظيم؛ لأنَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣١٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصـحـحه الألبـاني في «صـحيح سـنن أبي داود» (٤٧٩٨).

الصائم في النهار والمصلي في الليل يجاهدان أنفسهما في مخالفة شهواتهما؛ وأما من يحسن خلقه مع الناس مع اختلاف طبائعهم وأخلاقهم، فكأنه يجاهد نفوسًا كثيرة، فأدرك ما أدركه الصائم القائم، فاستويا في الدرجة.

وعدَّ ﷺ حُسن الخلق من تمام إيمان العبد وكماله، فقال: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[1].

وقال: «**لا يُؤمِن أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[2].

وأعلن أن صاحب الخلق الحَسَن سيفوز بمحبته ﷺ وبصحبته في الفردوس؛ فقال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا**»[3].

وتكفَّل له بالجنة؛ فقال: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ**»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠١٨) من حديث جابر رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن=



فالبيتُ العُلْوِيُّ جزاءٌ لأعلى المقامات الثلاثة، وهي حسن الخلق، وكلها راجعة إليه.

وجعله مِن أحب الأعمال إلى الله؛ فقال: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ ﷻ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفَ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِيَ عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدَ عَنْهُ جُوعًا، ولَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي الْمَسْجِدِ شَهْرًا**»[1].

وقال: «**إِنَّ اللهَ ﷻ كَرِيمٌ يُحِبُّ الكَرَمَ، وَمَعَالِيَ الأَخْلَاقِ، وَيُبْغِضُ سَفْسَافَهَا**»[2].

وأعظم من ذلك أنْ جعلَ الكلمةَ الهيِّنة الليِّنة صدقةً؛ فقال: «**الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ**»[3].

=أبي داود» (٤٨٠٠).

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٤٥٣) حديث (١٣٦٨٠)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٦).

(٢) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١٩١) حديث (٢٠٥٧٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٧٨).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بل وحتَّى التَّبَسُّم الذي لا يُكلِّف الإنسانَ شيئًا، فقال: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[1].

وأشار إلى أن حسن الخلق أثقلُ شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة، وأن الله يبغض سيئ الخلق؛ فقال: «**مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ**»[2].

وأنَّه خيرُ ما عَمِل ابنُ آدم؛ فقال: «**مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنَ الصَّلَاةِ، وَصَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وخُلُقٍ حَسَنٍ**»[3].

وأَثْنَى على الرِّفق؛ فقال: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**»[4]، وقال: «**مَنْ يُحْرَمِ الرِّفقَ يُحْرَم الخيرَ**»[5].

حتى أمر بإحسان القتل والذبح؛ فقال: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٦)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٢)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٤٨٩) حديث (١١٠٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (٦٩٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٩٢) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنهما.



فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[1].

وأمر بكظم الغيظ وبيَّن حسن عاقبته، فقال: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنفذَهُ- دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُءوسِ الخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَه فِي أَيِّ الحُورِ مَا شَاءَ**»[2].

ولما سأله رجلٌ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»[3].

إذ إطعام الطعام مما يُقوِّي الروابطَ بين الناس، وإفشاء السلام مما يوطِّد المحبَّةَ في القلوب.

ويَربطُ ﷺ بين ترك الإيذاء، وإكرام الضيف، وقول الخير بالإيمان بالله واليوم الآخر؛ فقال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[4]- هذا لبيان أهمية إصلاح ذات البين، وتوثيق العلاقات حتى

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥)، من حديث شدّاد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٢١)، من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يَسعد المجتمع ويَقْوَى.

وبين أنه أفضل ما في الدنيا فقال: «**أَرْبَعٌ إذَا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحسن الخلق، وعفة مطعم**»[1]، وكلها تعود إلى حسن الخلق.

و«**أنَّ الناسَ لم يعطوا شيئًا خيرًا من خلق حسن**»[2].

وقال: «**إنَّه من أعطي حظه من الرفق؛ فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يَعْمُرَان الديار ويَزِيدَان في الأعمار**»[3].

وأنَّ الله يرفع حَسَنَ الأخلاق؛ فقال: «**ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عِزًّا، ومَن تواضع لله رفعه**»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧) حديث (٦٦٥٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٧٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ١٧٩) حديث (٤٦٦)، من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩) حديث (٢٥٢٩٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥١٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وبشَّره بالنجاة من النار؛ فقال: «**حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس**»[1].

وأوضح أن العابد سيِّئ الخُلق مُعذَّب في النار بسبب سوء خلقه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة يُذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «**هي في النار**». قال: يا رسول الله! فإن فلانة يُذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وإنها تصَدَّق بالأثوار من الأقط[2]، ولا تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «**هي في الجنة**»[3].

وبيَّن ﷺ أن العبد مُطالب بأن يكتسب الأخلاق الحسنة، ويستعين الله على ذلك؛ فقال: «**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ**»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤١٥) حديث (٣٩٣٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال الأرنؤوط: «حسن بشواهده، وهذا إسناد ضعيف».

(٢) الأثوار: جمع ثور، وهي قطعة من الأقط، وهو لبن جامد مستحجر.

(٣) أخرجه أحمد (١٥/ ٤٢١) حديث (٩٦٧٥)، من حديث رضي الله عنه، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٣٠٨) وقال: «رواه أحمد والبزار، ورجاله ثقات».

(٤) أخرجه البخاري (١٤٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وكان من دعائه ﷺ: «وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»[1].

* * *

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم (٧٧١)، من حديث علي رضي الله عنه.

المبحث الثاني
وصف رحمته ﷺ وأقسامها، والآيات التي أشارت إلى معالم الرحمة في أخلاقه ﷺ

أولًا: وصف رحمته ﷺ وأقسامها:

من عظيم رحمة الله تعالى الجليلة بعباده أن أنزل الكتب وأرسل الرسل، واصطفى محمدًا ﷺ وفضَّله، فكان سيدَ ولد آدم، وخَاتمَ الأنبياء وإمام المرسلين، بعدما أدَّبه ربُّ العالمين فأحسن تأديبه، وحسَّن خَلْقه وزكَّى خُلُقه؛ فأكرم الناس بمبعثه لهم كافة؛ ليخرجهم به من الظلمات إلى النور، وليتمم به مكارم الأخلاق، وليكون رحمة للعالمين.

فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان محمد ﷺ رحمة لجميع الناس؛ فمن آمن به وصدَّق به سَعِدَ، ومن لم يؤمن به سَلِمَ مما لَحِقَ الأممَ من الخسف والغَرَق»[1].

فكان رسولُه محمدٌ ﷺ رحمةً للخلائق عامَّة؛ للمؤمن بالهداية، وللكافر بتأخير العذاب، وللمنافق بالأمن من القتل، وللمُعاهد وللمستأمن وللذميِّ

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٥٠).

بدخوله في عهده وأمانه وذِمَّته.

ولذلك كانت الرحمة التي حَبَاها سبحانه لنبيه تنقسم إلى قسمين:

رحمة عامة لسائر الخلق، قال تعالى: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ورحمة خاصة بأتباعه؛ قال تعالى: ﴿**بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أن الله جَعَل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلِّهم، فمن قَبِل هذه الرحمةَ وشكَر هذه النعمةَ- سَعد في الدنيا والآخرة، ومن رَدَّها وجَحَدَها خَسِر في الدنيا والآخرة»(١).

وقد قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(٢).

وقد بيَّن ﷺ منزلة رحمته العظيمة من أخلاقه المنيفة فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»(٣).

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٩١) حديث (١٠٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه،=



وقال: «**أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي سَبَبْتُهُ سَبَّةً أَوْ لَعَنْتُهُ لَعْنَةً فِي غَضَبِي، فَإِنَّمَا أَنَا مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُونَ، وَإِنَّمَا بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؛ فَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ صَلَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

ولما قيل له: يا رسول اللهّ، ادعُ اللهّ على المشركين. قال: «**إِنِّي لم أُبعث لعَّانًا، وإنَّما بُعِثتُ رحمةً**»(٢).

وعن أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً فَقَالَ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ**»(٣).

وجعل الله تعالى وُجُودَه بين أصحابه أَمَنَة لهم من العذاب، فقال ﷺ: «**... وأَنَا أَمَنَةٌ لأصحابي؛ فإذا ذهبتُ أَتَى أصحابي ما يُوعدون...**»(٤).

وقال ﷺ كما في حديث عبداللهّ بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما في صلاة الكسوف: «**... ربِّ ألم تعدني ألَّا تعذِّبَهم وأَنَا فيهم؟ ألم تَعِدْنِي ألَّا تعذِّبَهم وهم**

=وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٩٠).

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٥٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٥٥).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٣١)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

يَستغفرون؟»[1].

وكانت هذه صفته ﷺ في الكتب السابقة قبل أن تنالها يدُ التحريف؛ فعن عطاء ﵁ قال: قلت لعبد الله بن عمرو: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: «**أَجَلْ، وَالله إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ:** ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا**﴾ [الأحزاب: ٤٥]....»[2].

ومظاهر رحمته ﷺ قد تجلَّت في حياته كلها، وحفلت بها سيرتُه المباركة، وامتلأت بها شريعتُه المشرفة، فرحم كل من حوله: الصغير والكبير، والقريب والبعيد، والمرأة والضعيف، بل شملت رحمته الإنس والجان والحيوان، وجاء بشريعة كلها خير ورحمة للعباد، وما من سبيل يوصل إلى رحمة الله تعالى إلا جلَّاه لأمته، وحضَّهم على سلوكه، وما من طريق تبعدهم عن رحمة الله تعالى إلا زجرهم عنها، وحذرهم منها؛ رحمة بهم، وشفقة عليهم؛ حتى كاد من حرصه على هدايتهم يُهلِك نفسَه، فعَاتَبَه ربُّه ونهاه عن ذلك؛ فقال: ﴿**لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ**﴾ [الشعراء: ٣]، وقال: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ**

---

(١) أخرجه أبو داود (١١٩٤)، من حديث عبد الله بن عمرو ﵄، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١١٩٤).

(٢) تقدم كاملًا، والحديث أخرجه البخاري (٢١٢٥).



يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

ودعا ﷺ إلى التراحم فقال: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ؛ ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ - يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»[١].

وأخبر أن الرحيم مثواه الجنة فقال: «... **وَأَهْلُ الجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ**...»[٢].

ومع امتلاء سيرته بمواقفَ جلَّت للعالمين رحمته بهم؛ إلا أنها حفظت كذلك مواقف أخرى أوقع فيها العقوبة الشديدة على من يستحقُّها، وليس ذلك مما يتعارض مع صفة الرحمة التي امتلأ بها قلبه، بل هي من وضع الرحمة في موضعها اللائق بها؛ لئلا تتحول إلى ضعف وعجز؛ فقاتل ﷺ من استحقَّ القتال من المشركين واليهود، وضرب بسيفه في سبيل الله، وقتل أُبيَّ بن خلف بيده، وأمر بقتل جماعة من المشركين ومن اليهود، وقتل المحاربين المرتدين بعد أن قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٢٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

وكما دعا ﷺ لبعض المشركين بالهداية، واستسقى لهم؛ دعا كـذلك عـلى آخرين بالعذاب والزلزلة والنار.

كل هذه الحوادث ومثيلاتها تشريعٌ من رب العالمين، أوحى به إلى الرسول الأمين ﷺ، أو أقرَّ الله تعالى اجتهاده فيها، وهو ﷺ لا يَنطـق عـن الهـوى؛ إن هو إلا وحي يوحى؛ فكانت هذه الأحكام منه ﷺ حقًّا وصدقًا وعدلاً.

وقد ضلَّ قومٌ من أعداء هذا الدين؛ فحاولوا التشنيع بمثـل هـذه الأحـداث على سيرة الرحمة المهداة ﷺ، واختزلوا السيرة النبوية فيها، وقدَّموها لأذنابهم على أنها براهين على دموية النبي ﷺ وأتباعه من المسلمين، وحمَّلوها ما لا تحتمل.

وكذلك لم يُنصفوا فيذكروا ما فاضت به كتب السنة والسـيرة ممـا لا يكـاد يُحصى من مواقفه ﷺ الرحيمة، وكريم شمائله، وعظيم صفحه.

فالنبي العظيم ﷺ كان يحمل القرآن لمن أراد الهداية والنجـاة، والسـيف لمن وقف في وجه الدعوة وحادَّ الله ورسوله مضطرًّا لذلك، بعـد بـذل قصـارى الجهد في الدعوة والبلاغ لإيصال رسالة الحق لمن وراءهم.

فلابد لإقامة الدين والدولة من الرحمـة الوسـطية الحـق؛ دونـما إفـراط أو تفريط؛ وهذا ما شهد به الأعداء قبل الأحباب والأتباع.

ونبينا ﷺ القائد الوحيد الذي علَّم الدنيا أن القتال ليس للتشفي ولا لحـبِّ

التملك؛ إنما لإزالة العوائق أمام تبليغ دين الله، ولذلك لم تَخْلُ حروبُه من رحمة، كما سأبين- إن شاء الله- في المبحث الثالث عند الحديث عن (رحمته ﷺ بالكافرين).

وكان من رحمته بأتباعه أن أقام الحدود على من انتهكها؛ فرجم ماعزًا والغامدية لما زنيا، وقطع السارق.

وهذا منتهى الرحمة بهم، وإن كان في ظاهرها الشدة؛ إذ عقاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فكانت الحدود جوابر لمرتكبيها، وزواجر لغيرهم.

وهذا- لَعَمْر الله- من أظهر الأدلة على صدق النبي الأمين ﷺ، إذ لو كان يريد أن يَستكثر بالأتباع أو يتقوى بالنُّصراء- ما جَلَد ظهر مَنِ اتبعه، ولا رَجَم مَن آمن به، لكنه مُبلغٌ دين ربه، قائمٌ بشرعه، لا يفعل هذا إلا طلبًا لمرضاته سبحانه؛ ولذلك لم يخش فيه لومة لائم.

وفي المُقابل لما خالطت بشاشة الإيمان قلوب أصحابه وأيقنوا بصدق نبيهم- هانت نفسُ من وقع في المعصية منهم عليه، وجَادَ بها لله؛ ليطَّهر من درن الرذيلة، فرضي الله عنهم، وغفر لهم.

رحمة النبي ﷺ في القرآن الكريم:

الآيات التي أشارت إلى هذه الصفة في أخلاقه ﷺ تصريحًا وتلميحًا كثيرة جدًّا؛ أذكر منها:

١- قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقول ابن كثير: «﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ أي: لو كنت سيِّئَ الكلام، قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفًا لقلوبهم»[1].

فكانت هذه صفته الدائمة الملازمة له؛ التي أَسَر بها قلوب الناس حوله، فلم يسعهم بماله، ولا بتوزيع المناصب عليهم، وإنما وسعهم برحمته بهم، وحرصه على هدايتهم، حتى جمعهم الله عليه؛ قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فليَّن الله قلبه لهم، وحسَّن أخلاقه معهم، وامتن على العالمين ببعثته.

٢- قوله سبحانه وتعالى في مَعرض ذكر إيذاء المنافقين له ﷺ: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

يقول السعدي: «﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ ﴾؛ فإنهم به يهتدون، وبأخلاقه

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٤٨).



يقتدون.

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة، بل ردوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم»[1].

٣- قوله جل في علاه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال ابن كثير: «... وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ أي: منكم وبلغتكم...، وقوله تعالى: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها...، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه، ﴿**حَرِيصٌ عَلَيْكُم**﴾ أي: على هدايتكم، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم». اهـ باختصار[2].

وذكر القرطبيُّ عن الحسين بن الفضل قوله: «لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ؛ فإنه قال: ﴿**بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾، وقال: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحج: ٦٥][3].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص ٣٤١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٤١).

(٣) انظر «تفسير القرطبي» (٨/ ٣٠٢)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب،=

٤- قوله عز من قائل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

يقول الشنقيطيُّ عند تفسيره لهذه الآية: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه ما أرسل هذا النَّبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى الخلائق إلا رحمة لهم؛ لأنه جاءهم بما يُسعدهم، وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه، ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى»(١).

فلا يَحتج محتجٌّ بأن النبي ﷺ لم يكن رحمة للكفار؛ إذ من كفر به دخل النار؛ لأنهم هم الذين أبوا طاعته ﷺ الذي ما أرسل إلا رحمة لهم؛ فقال ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»(٢).

هذا بعد أن قام بالبلاغ خير قيام، وما ترك سبيلاً يوصل إلى الجنة إلا دلَّ أمته (أمة الدعوة والرسالة) عليه، وما ترك شيئًا يقربها إلى النار إلا حذرها منه؛

=الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٢٥٠، ٢٥١) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، سنة الطبع: ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.



﴿ لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقد بين في هذا المثل حاله مع أمته؛ فقال: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا؛ فَأَنَا آخُذ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا**»(١).

٥- قوله تبارك وتعالى: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾... **الآية** [الفتح: ٢٩].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار: أنهم بأكمل الصفات، وأجل الأحوال، وأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة، فلذلك ذَلَّ أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون، ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه»(٢).

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦٤٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) «تفسير السعدي» (ص ٧٩٥).

وهذا على ميزان الحق والعدل مع المخالفين المحاربين؛ حماية لهـذه الـدعوة المباركة، ونشرًا لها؛ فلا بد للحق من قوة تحميه وتمنعه، حتـى يبلـغ تمامـه، وعـلى ميزان الفضل والإيثار مع الإخوة في الدين.

٦- وذكر الله تعالى في كتابه البشارة بمبعث محمد ﷺ في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء السابقين؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فكان من رحمة الله بهم أن أرسل إليهم هذا النبي الأمي ليرحمهم مما لحقهـم من الإصر والأغلال، وصارت هذه الرحمة سِمة هذه الشريعة ومَن جاءَ بها.

يقول الطاهر بن عاشور: «وحكمة تمييز شريعـة الإسـلام بهـذه المزيـة أن أحوال النفوس البشرية مضـت عليهـا عصـور وأطـوار تهيـأت بتطوراتهـا لأن تُسَاس بالرحمة، وأن تُدفعَ عنهـا المشـقة إلا بمقـادير ضروريـة لا تقـام المصـالح بدونها، فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدة، وما في شريعة الإسلام من تمحض الرحمة- لم يجر في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة، ولكن الله أسعد هذه الشريعة والذي جاء بها والأمة المتبعة لها بمصـادفتها للـزمن والطـور



الذي اقتضت حكمة الله في سياسة البشر أن يكون التشريع لهم تشريع رحمة إلى انقضاء العالم.

فأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر؛ قال تعالى: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: **﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾** [البقرة: ١٨٥]، وقال النبي ﷺ: «**بُعِثْتُ بالحَنِيفيَّةِ السَّمْحَةِ**»[1]». اهـ[2].

٧- وبيَّن سبحانه الحكمة من إنزال كتابه على نبيه؛ **فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** [النحل: ٦٤].

٨- وكان من فضله ﷺ على أمته ورحمته بهم في حياته: أنهم إذا ارتكبوا المعاصي وجاءوه ﷺ نادمين مستغفرين- استغفر لهم الله ودعاه ليقبل توبتهم؛ **قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾** [النساء: ٦٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) حديث (٢٢٣٤٥)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٩٢٤).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٧/ ١٢٣، ١٢٤).

أما في الآخرة فستكون شفاعات الرءوف الرحيم ﷺ، بعـد أن يـأذن الله لمن يشاء ويرضى.

* * *



المبحث الثالث

رحمته ﷺ بالخلق أجمعين

أولًا: رحمته بأمته:

قال القاضي عياض: «أمَّا إحسانه وإنعامه على أمته، فكذلك قد مرَّ منه في أوصاف الله تعالى له: من رأفته بهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وشفقته عليهم، واستنقاذهم به من النار، وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، ورحمة للعالمين، ومُبشِّرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ويتلو عليهم آياتِه، ويزكيهم ويُعلمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلى صراط مستقيم. فأيُّ إحسان أجَلُّ قَدرًا وأعظمُ خَطَرًا من إحسانه إلى جميع المؤمنين؟!»(١).

أ- رحمته ﷺ في دعوته أمته:

كانت دعوته ﷺ كلها رحمة وشفقة وإحسانًا وحرصًا على جمع القلوب، وهداية الناس جميعًا، لا يكل ولا يمل، ولا يدخر في ذلك أقل وسع؛ حتى كاد يهلك نفسه الشريفة ﷺ حزنًا وكمدًا على تكذيبهم له.

ولما نزل عليه الأمر بالإنذار والبلاغ - قام بتبليغ دين الله خير قيام، وترك

(١) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، بحاشية الشمنى (٢/ ٣٠).

النوم والراحة والدعة.

هذا كله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما علَّمه ربه سبحانه.

وكان مع هذا كأحدهم يدخل الداخل عليهم فيقول: «أيكم محمد؟!»[1]، ويبتسم في وجوههم ويدعوهم إلى ذلك، ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم.

وكان يتعاهدهم بالموعظة، ولا يملهم بها؛ كما قال ابن مسعود: «**كَانَ يَتَخَوَّلُنَا بِالمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ كَرَاهِيَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا الله عنه**»[2].

وهاكَ أمثلة من دعوته أصحابه بالرحمة والرفق واللين مما لا مثيل لها، ولا مزيد عليها:

ففي الحديث أنَّ فتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا! فَأَقْبَلَ القَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ. فَقَالَ: «**ادْنُهْ**». فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ. قَالَ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟!**» قَالَ: لاَ وَالله، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ! قَالَ: «**وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**»... الحديث، إلى أن وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**». فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الفَتَى يَلْتَفِتُ

(١) أخرجه البخاري (٦٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: البخاري (٦٤١١)، ومسلم (٢٨٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.



إِلَى شَيْءٍ»[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي المَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ: مَهْ مَهْ! فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ!**» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله عز وجل، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**»[(٢)].

ب- رحمته ﷺ بأمته في التشريع:

جاء ﷺ بالتيسير ورفع الحرج والتخفيف على أمته؛ فقال: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ؛ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ**»[(٣)].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «**مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِنْ الآخَرِ، إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا؛ فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ**»[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٥٦) حديث (٢٢٢٦٥)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) متفق عليه: البخاري (٦٧٨٦) ومسلم (٢٣٢٧) واللفظ له، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وكان ﷺ يشتدُّ على من يخالف هذا الهدي؛ فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا! فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشَدَّ غَضَبًا فِي مَوْعِظَةٍ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ؛ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ؛ فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ فِيهِم الضَّعِيفَ وَالكَبِيرَ وَذَا الحَاجَةِ**»[1].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ الوِصَالِ[2]، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ المُسْلِمِينَ: فَإِنَّكَ يَا رَسُولَ الله تُوَاصِلُ! قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَأَيُّكُمْ مِثْلِي! إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**». فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا عَنِ الوِصَالِ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْمًا ثُمَّ يَوْمًا، ثُمَّ رَأَوْا الهِلَالَ، فَقَالَ: «لَوْ تَأَخَّرَ الهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ»؛ كَالمُنَكِّلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا»[3].

وكان ينهاهم عن التكلف؛ فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ وَعِنْدِي امْرَأَةٌ، فَقَالَ: «**مَنْ هَذِهِ؟**». فَقُلْتُ: امْرَأَةٌ لَا تَنَامُ تُصَلِّي! قَالَ: «**عَلَيْكُمْ مِنْ العَمَلِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَوَالله لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ**

(١) أخرجه البخاري (٦١١٠).

(٢) وهو أن يَصِل الصائم الليل بالنهار؛ فيصوم اليومين لا يأكل بينهما شيئًا.

(٣) متفق عليه: البخاري (٧٢٤٢)، ومسلم (١١٠٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.



عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»[1].

بل كان يترك العمل وهو يحبه رحمة بأمته؛ وفي ذلك تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «**إِنْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَيَدَعُ العَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ**»[2]؛ وذلك كما حَدَث في قيام رمضان.

أو يخفِّفه خوفَ المشقة عليهم؛ كقوله: «**إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ؛ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ**»[3].

وكان ينهاهم عن كثرة السؤال وتتبع المسكوت عنه؛ فقَالَ ﷺ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ؛ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ**»[4].

بل كان ﷺ يعلن دائمًا أنه لولا خشية أن يشق على أمته لأمرها بما هو ليس بواجب عليها إرادةَ الخير بها؛ فقال: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي - أَوْ عَلَى النَّاسِ - لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ**»[5].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٨٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٢٨)، ومسلم (٧١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٧) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (١٣٣٧).

(٥) أخرجه البخاري (٨٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُؤَخِّرُوا العِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِهِ**»(١).

ج- رحمته ﷺ في تعامله معهم:

كان ﷺ يعامل أصحابه برحمة عظيمة حتى صار أحبَّ إليهم من أولادهم وآبائهم وأموالهم، ومن الناس أجمعين، بل من أنفسهم، وليس هذا مع كبرائهم فقط، بل ومع الإماء والغلمان منهم؛ قال أَنس رضي الله عنه: «**إِنْ كَانَتْ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ الله ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ**»(٢).

وكَانَ رَسُولُ الله ﷺ «**لَا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ؛ فَيَقْضِيَ لَهُ الحَاجَةَ**»(٣).

وكان لا يترفع عليهم في مأكل، أو مشرب، أو ملبس، أو مسكن، أو مركب، أو غير ذلك؛ فعَن أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ! فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ؛ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقَالَ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٧٢).

(٣) أخرجه النسائي (١٤١٤) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١٤١٤).



الْقَدِيدَ»[1].

فلم يكن يعاملهم كأنه مَلِك، إنما كان بينهم كأحدهم حتى يدخل الداخل عليهم فيقول: «**أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟**»[2].

ويجيب دعوتهم ويقبل هديتهم؛ قائلًا: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ**[3] **لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ**»[4].

قال ابن حجر: «**وخصَّ الذِّراع والكُرَاع بالذِّكر؛ ليجمع بين الحقير والخطير؛ لأن الذراع كانت أحبَّ إليه من غيرها، والكُرَاع لا قيمةَ له**»[5].

فأسرهم بأخلاقه، واستمال قلوبهم بشمائله العظيمة، وخصائصه الجليلة.

د- رحمته بهم بعد مماتهم:

لم تكن رحمته ﷺ بأصحابه حال حياتهم فقط، ليجمعهم عليه، بل

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٦٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) مستدق الساق. انظر «مختار الصحاح» للرازي (ص ٥٨٦)، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت- طبعة جديدة، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) «فتح الباري» (٥/ ١٩٩، ٢٠٠) - دار المعرفة- بيروت، ١٣٧٩هـ.

شملتهم حتى بعد مماتهم، حتى ولو كانوا ممن لا يرفع الناس شأنهم في هذه الحياة؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا أَسْوَدَ- أَوْ امْرَأَةً سَوْدَاءَ- كَانَ يَقُمُّ الْمَسْجِدَ فَمَاتَ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ، فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي بِهِ، دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ، أَوْ قَالَ: قَبْرِهَا**»، فَأَتَى قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا»[1].

وكثيرًا ما كان يدفن أصحابه ويبكيهم ويدعو لهم؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّل عثمان بن مظعون وهو ميت، حتى رأيت الدموع تسيل**»[2].

ومن عظيم رحمته ﷺ بأمته أنه اشتاق إلى رؤية من يأتي بعده منهم؛ فقال: «**وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا!** قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ الله؟! قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»[3].

هذا؛ لأنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ قَالَ ﷺ: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾** [الأحزاب: ٦]؛ **فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣١٦٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣١٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي؛ فَأَنَا مَوْلَاهُ»[1].

وتتجلَّى عظمةُ رحمة النبي ﷺ بأمته حينما دعا الله ﷻ ألَّا يهلكها بسَنَة عامَّة[2].

فالأمة- بفضل الله تعالى- في أمان من الهلاك بسَنَة عامة، ومحفوظة بحفظ الله من أن تستباح بيضتها؛ ولم يبق إلا أن تصلح ذات بينها، حتى لا يُهلِك بعضهم بعضًا.

وبلغ من رحمته عليه الصلاة والسلام بأمته أنَّه آثر أمته على نفسه بدعوته المستجابة؛ فقال: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ؛ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ- إِنْ شَاءَ اللهُ - مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بالله شَيْئًا**»[3].

ولما رَفَعَ يَدَيْهِ قائلًا: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**»، وبكى؛ أرسل الله تعالى إليه جبريل، فقال: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل له: «**إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤكَ**»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) عن ثوبان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

قال النووي: «هَذَا الحَدِيث مُشْتَمِل عَلَى أَنْوَاع مِنْ الفَوَائِد، مِنْهَا: بَيَان كَمَال شَفَقَة النَّبِيّ ﷺ عَلَى أُمَّته وَاعْتِنَائِهِ بِمَصَالِحِهِمْ، وَاهْتِمَامه بِأَمْرِهِمْ»[1].

هذه رحمته ﷺ بأمته؛ حَرص على سعادتهم في الدارين، وأَمرَهم بما يصلحهم فيهما، وحَذَّرهم مما يضيع حظَّهم فيهما.

ثانيًا: رحمته ﷺ بالحيوان:

قبل أن تعرف الدنيا منظمات حقوق الإنسان أو حتى حقوق الحيوان- عرفت سيدَ الأنام رءوفًا رحيمًا، داعيًا للرحمة بكل معانيها وبجميع الخلائق، وضرب ﷺ أروع الأمثلة في ذلك:

فجعل رحمة الله بعبده جزاء لرحمته بالحيوان؛ لما قال له رجل: يا رسول الله، إني لأرحم الشاة أن أذبحها، قال: «**والشَّاةُ إن رحمتَها رَحِمَك اللهُ**»[2].

وأوصى ﷺ بالبهائم العجماوات؛ فعَنْ سَهْلِ ابْنِ الحَنْظَلِيَّةِ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ؛ فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ البَهَائِمِ**

(١) انظر «شرح النووي على مسلم» (٣/ ٧٨)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٦) حديث (١٥٦٣٠)، من حديث قرة بن إياس رضي الله عنه، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح».



الْمُعْجَمَةِ؛ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً»[1].

ونهى عن اتخاذها لغير الغرض الذي خُلِقت من أجله؛ فقَالَ: «**إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ؛ فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ، فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَتَكُمْ**»[2].

وبيَّن أن للعبد أجرًا في الإحسان إليها، ولو كان هذا الحيوان كلبًا، وقد يكون ذلك سببَ مغفرة ذنوبه؛ فقال: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ العَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي؛ فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ؛ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا! قَالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»[3].

وأنَّه لو أحسنت بَغِيٌّ- ولو إلى كلب- تابَ الله عليها وغفر لها؛ فعن

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٤٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٤٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٦٧).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٤٤)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ **«أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ، يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنْ العَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا[1] فَغُفِرَ لَهَا»**[2].

وأمر بإحسان ذبحها إن كانت مما يذبح، أو إحسان قتلها- إن كان لا بد من قتلها- بأن كانت مؤذية؛ فقال: **«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»**[3].

وحذَّر من قتلها إلا بحقها؛ فقال: **«مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا سَأَلَه اللهُ عز وجل عَنْهَا يَوْمَ القِيَامَةِ»**. قِيلَ: يَا رَسُولَ الله فَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ: **«حَقُّهَا أَنْ تَذْبَحَهَا فَتَأْكُلَهَا، وَلَا تَقْطَعْ رَأْسَهَا فَيُرْمَى بِهَا»**[4].

ولعن من اتخذ شيئًا فيه الرُّوح غرضًا[5] للرَّمي[6].

---

(١) أي: اسْتَقَت له بخُفِّها.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٥).

(٣) أخرجه الترمذي (١٤٠٩) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، وقَالَ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٤) أخرجه النسائي (٤٤٤٥)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٢٦١) حديث (٧٥٧٤)، وصححه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٦٦).

(٥) الْغَرَضُ: الْهَدَفُ الَّذِي يُرْمَى إِلَيْهِ. انظر «مختار الصحاح» للرازي (ص ٤٨٨).

(٦) أخرجه مسلم (١٩٥٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.



ونهى أن تُصْبَرَ البهائم[1].

ونهى عن تحريقها بالنار؛ فعندما رَأى قَرْيَةَ نَمْلٍ قد حُرِّقَـتْ، قَـالَ: «**إِنَّـهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ**»[2].

ولعن من وسمها في وجهها؛ فعن جابر رضي الله عنه أَنَّ النبي ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَـارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ**»[3].

لأنَّ كلَّ هذا مُنَافٍ للرَّحمةِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى المؤْمنِ أَنْ يتحلَّى بها.

ورَحِم عليه الصلاة والسلام حُمَّرة[4] قد أُخِذ ولدها وهي تُفَرِّشُ بجناحيها في الأرض وَجْداً عليه، فقال: «**مَنْ فَجَعَ هذه بِوَلَدِها؟ رُدُّوا وَلَدَها إليها**»[5].

---

(١) كُلُّ ذِي رُوحٍ يُوثَقُ حَتَّى يُقْتَلَ فَقَدْ قُتِلَ صَبْرًا. انظر «المصباح المنير» للفيومي (٥/ ١٥١). والحديث متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥١٣)، ومسلم (١٩٥٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٧٥)، من حديث () رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٧٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢١١٧).

(٤) طائر صغير كالعصفور. انظر «عون المعبود» للعظيم آبادي (٧/ ٢٤٠)- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

(٥) أخرجه أبو داود (٢٦٧٥)، من حديث () رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٧٥).

وَرفع الظلم عن الحيوان؛ فأمر بإحسان صُحبته وإطعامه وألا يكلف ما لا يطيق؛ فقد دَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنْ الأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ[1] فَسَكَتَ، فَقَالَ: **«مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟»** فَجَاءَ فَتًى مِنْ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ الله! فَقَالَ: **«أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؛ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ[2]»**[3].

وأَخبر- بما علَّمه الله- **«أن امْرَأَةً عُذِّبَتْ فِي هِرَّةٍ، سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»**[4].

---

(١) الذِّفْرَى من البَعِيرِ: مُؤَخّر رَأْسِهِ. انظر «غريب الحديث» لابن الجوزي (١/ ٣٦١)- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى، ١٩٨٥م- تحقيق: د.عبدالمعطي أمين قلعجي.

(٢) أي: تَكُدُّه وتُتْعِبُه. انظر «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الجزري (٢/ ١٩٩)- المكتبة العلمية- بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م- تحقيق: طاهر أحمد الزاوى- محمود محمد الطناحي.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٤٩) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٤٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وأعظم من ذلك أنه قال: «**إِنْ قامت الساعةُ وبِيَدِ أحدكم فسيلة**[1]**، فإن استطاع أَلَّا يقوم حتى يغرسها فليفعل**»[2].

وهذه دعوةٌ للتراحم وإعمار للكون، حتى ولو كان في آخر لحظات الدنيا- رحمةً بالإنسان والحيوان؛ وأخذًا بأسباب الحياة ومقوماتها إلى النهاية.

ثالثًا: رحمته ﷺ بالكافرين:

لما أكرم الله نبيه بالرسالة واصطفاه نادى: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»[3].

فقَبِل هذه الرحمة كلُّ سعيد، ورفضها كل شقي، ومع ذلك كان له من رحمة الرحمة المهداة نصيب في الدنيا، ومن ذلك:

١- حَالَ وجودُ النبي ﷺ دون نزول عذاب الاستئصال بالكافرين، كما حصل مع بعض الأمم السابقة لهم، مثل قوم عاد، وثمود، ولوط؛ قال تعالى:

---

(١) نخلة صغيرة. انظر «التيسير بشرح الجامع الصغير» للمناوي (١/ ٧٥٦)- مكتبة الإمام الشافعي- الرياض- ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م- الطبعة الثالثة.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٩١) حديث (١٣٠٠٤) من حديث أنس ﷺ، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٩١) حديث (١٠٠)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٩٠).

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]. وتلك رحمة نَعِم بها الكافرون جميعًا.

٢- ترك الدعاء عليهم لما كذَّبوه وعاندوه، ولو دعا عليهم، لاستجاب الله لـه، كما استجاب لدعوة غيره من الأنبياء على أقوامهم، فعندما قال له أصحابه: يا رسـول الله، ادع على المشركين، قال: «**إنِّي لم أُبْعَثْ لَعَّانًا، وإنَّما بُعِثتُ رحمةً**»[1]؛ وكـان هـذا في معركة أُحُد، بعدما أصيب فيها ﷺ بجراحات كثيرة، وقُتِل فيها خِيرةُ أصحابه.

وحين تعرَّض المسلمون لأذى ثقيف، قالوا: يا رسول الله، ادع على ثقيف، فدعا لهم قائلًا: «**اللَّهُمَّ اهْدِ ثقيفًا**»[2].

ولما قَدِمَ الطُّفَيْلُ بن عمـرو وَأَصْـحَابُهُ عـلى رسـول الله ﷺ، فَقَـالُوا: يَـا رَسُولَ الله إِنَّ دَوْسًا قَدْ كَفَرَتْ وَأَبَـتْ، فَـادْعُ اللهَ عَلَيْهَـا، فَقِيـلَ: هَلَكَـتْ دَوْسٌ! فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا، وَائْتِ بِهِمْ**»[3].

٣- تجنب صِدامِهم بكل وسيلة ممكنة حتى يكون آخر الدواء القتال، فقـد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٤٢) من حديث جـابر بـن عبـد الله رضي الله عنهما، وقـال: «حسـن صـحيح غريب».

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤).

منع مقاتلتهم مدة ثلاثة عشر عامًا، وحين قَاتَلَهم، كان حريصاً على إنهاء الصراع سريعًا، ويشهد لهذه قلة عدد المعارك بينهم، وقلة عدد القتلى كذلك.

وقد قال له عليٌّ: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «**عَلَى رِسْلِكَ، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم؛ فوالله لأن يُهدَى بك رجلٌ واحدٌ خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَم**»[1].

هذا هو المقصود من القتال: دفع العدوان وصد البغي، وإزالة المعوِّقات من طريق الدعوة، ولإقامة الحُجَّة.

٤- شعور عامة الكفار برحمة النبي ﷺ بهم، وشفقته عليهم، إذ على الرغم من خذلانهم ومعاداتهم له إلا أنه دعا الله تعالى أن يَرفع عنهم القَحْطَ والجَدْبَ، عندما أصابهم، فقد قيل له: يا رسول الله، استسق الله لمضر؛ فإنها قد هلكت، فاستسقى لهم ﷺ فسُقُوا[2].

٥- صلتهم بالعطاء لتأليف قلوبهم؛ فأعطى رسول الله ﷺ صفوان بن أمية مائة من النَّعَم، ثم مائة، ثم مائة. حتى قال صفوان: «**وَالله لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ الله ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢١) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»(١).

وقال أنسٌ رضي الله عنه: «**إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا**»(٢).

وقال أيضًا: «**مَا سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا! فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الفَاقَةَ**»(٣).

ويا لله العجب**!** يعطيهم الدنيا ويعيش على الكفاف؛ ليؤلف قلوبهم فيربحوا الدارين، فما أرحمه**!**

وكان يَعُودُ مريضَهم ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «**أَسْلِمْ**». فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ يَقُولُ: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٢).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٥٦).



٦- تفضله عليهم بالعفو والعتق، وترك المؤاخذة بالمثل؛ مثلما فعل بأهل مكة، وغيرهم.

٧- معاملتهم بالرفق ولو كانوا يهودًا، فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنْ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ! قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ! قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ!**»(١).

بل وفي حروبه التي اضطر إليها كان رحيمًا، فقابل الإساءات بالإحسان والعفو والصفح الجميل، ومع أنه كان يقاتل بشجاعة، إلا أنه كان صاحب شفقة عظيمة.

فكان يُوصي أُمراءه بمثل هذه الوصية؛ فعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله، وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «**اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بالله، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ**

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٤).

فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ الله الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمْ الجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ؛ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بالله وَقَاتِلْهُمْ...» الحديث[1].

ونهى عن قتل الصبيان والشيوخ والنساء في الحرب؛ فعَنْ حَنْظَلَةَ الكَاتِبِ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَمَرَرْنَا عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ، قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا النَّاسُ فَأَفْرَجُوا لَهُ، فَقَالَ: «**مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ فِيمَنْ يُقَاتِلُ**». ثُمَّ قَالَ لِرَجُلٍ: «**انْطَلِقْ إِلَى خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكَ يَقُولُ: لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا**»[2].

وقال: «**أعفُّ النَّاسِ قِتْلَةً: أهلُ الإيمان**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١).

(٢) العسيف: الأجير، وكأن المراد الأجير على حفظ الدواب لا المقاتل، والحديث أخرجه ابن ماجه (٢٨٤٢)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٢٩٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٣) حديث (٣٧٢٨)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، وحسنه=



وحذَّر تحذيرًا شديدًا من قتل المُعَاهَدين؛ فقَالَ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»(١).

وحذَّر من ظُلم المعاهد بأي نوع من أنواع الظلم؛ فقال: «**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهدًا أَو انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ- فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٢).

وحتى يوم الفتح الأكبر لما قال سعد بن عبادة: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحلُّ الحرمة»، قال ﷺ: «**كَذَبَ سَعْدٌ**(٣)؛ **ولكنَّ هذا يومٌ يُعظِّم اللهُ فيه الكعبةَ، ويومٌ تُكْسَى فيه الكعبةُ**»(٤)، وأخذ الراية منه.

وبينما كان المشركون جادِّين في حملتهم لقتله كان أكثر رحمة بهم، وكان يدعو: «**اللَّهُمَّ اغفر لقومي؛ فإنَّهم لا يعلمون**»(٥).

=الأرنؤوط.

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٠٥٢).

(٣) قال ابن حجر: «فيه إطلاق الكذب على الإخبار بغير ما سيقع، ولو كان قائله بناه على غلبة ظنه وقوة القرينة». «فتح الباري» (٨/ ٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٨٠).

(٥) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٤) حديث (٩٧٣) وقال الأرنؤوط: «إسناده حسن».

رابعًا: رحمته ﷺ بالجن:

الجن: عالم غيبي، سموا بهذا الاسم؛ لاجتنانهم عن العيون، أي: استتارهم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ** ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقد خلقهم الله سبحانه من النار؛ فقال: ﴿ **وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ** ﴾ [الحجر:٢٧].

وكانت الغاية من خلقهم أيضًا عبادته سبحانه كالإنس؛ قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن خصائصه ﷺ أنه بُعِث إلى الإنس والجن عامَّة؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ**»؛ وذكر منها: «**وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً**»[1]؛ هذا لكون رسالته خاتمة الرسالات.

ولما كان النبي ﷺ مبعوثًا رحمة للعالمين، كان الجنُّ من ضمن العالمين الذين رحمهم الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ببعثته.

قال الإمام الطَّحاويُّ: «وهو المبعوث إِلَى عامَّة الجِنِّ، وكافَّةِ الوَرَى، بالحقِّ والهُدَى، وبالنُّورِ والضِّياءِ»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي، (ص ١٦٦)، المكتب الإسلامي، الطبعة=



وقد بلَّغ رسولُ الله ﷺ دعوته إلى الجن دون شك ولا ريب، وأعلمه الله أن دعوته بلغتهم؛ قال تعالى: ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ﴾ [الجن: ١، ٢].

وصرف إليه نفرًا منهم يستمعون منه القرآن؛ ليكونوا دعاة لأقوامهم؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وهذا يثبت بلوغ دعوته ﷺ إلى الجن قطعًا، وكان ذلك عن طريق توافدهم عليه، واستماعهم إليه ﷺ، وعن طريق ذهابه إليهم، وقراءته عليهم؛ فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ؛ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ**». قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ! فَقَالَ: «**لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ**». فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا؛ فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ**»(١).

وقد ذكر الله تعالى في سورة الجن أن من الجن صالحين، ومنهم دون ذلك، وأن منهم مسلمين، ومنهم قاسطين، فهم أمة كسائر الأمم، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا

=الثامنة، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

(١) أخرجه مسلم (٦٨٢).

مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فمن رحمته ﷺ العظيمة بالجِنِّ: تحمل أعباء دعوتهم، وتعليمهم أحكام الدين، وإيضاح ما يحل لهم من الطعام؛ ونهي الإنس عن إيذائهم بإفساد طعامهم، وجعل المؤمنين منهم بالله ورسوله ﷺ إخوانًا للمؤمنين من الإنس في دين الله تعالى.

ونهيه ﷺ عن قتل حيات البيوت خشيةَ أن يكون هذا المقتول جنيًّا قد أسلم، فقال: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ قَدْ أَسْلَمُوا؛ فَمَنْ رَأَى شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْعَوَامِرِ فَلْيُؤْذِنْهُ ثَلَاثًا؛ فَإِنْ بَدَا لَهُ بَعْدُ فَلْيَقْتُلْهُ؛ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ**»(١).

وقد أثنى ﷺ على مُؤمنيهم لتدبرهم القرآن؛ فعن جابر قال: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَسَكَتُوا، فَقَالَ: «**لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ؛ كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾. قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٤١٥١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢١٣)، وقال: «حديث غريب»، وحسَّنه الألباني في «صحيح=



هذا من عظيم رحمته وجميل سجاياه ﷺ حتى مع الجن، ذلك الخَلق اللطيف الذي لا نراه بأعيينا.

وفي ذلك يقول البقاعي: «سورة الجن، وتسمى ﴿ **قُلْ أُوحِيَ** ﴾: مقصودها: إظهار الشرف لهذا النبي الكريم الفاتح ﷺ وعلى أنه وأصحابه وذريته أهل بيته، حيث ليَّن له قلوب الإنس والجن وغيرهما، فصار مالكًا لقلوب المُجانس وغيره، وذلك لعظمة هذا القرآن، ولطف ما له من غريب الشأن، هذا والزمان في آخره، وزمان لبثه في قومه دون رُبُع العُشْر من زمن نوح عليه السلام، أول نبيٍّ بعثه الله تعالى إلى المُخالفين، وما آمن معه من قومه إلا قليل»[1].

***

=الترمذي» (٢٦٢٤).

(١) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٨/ ١٨٠)، دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

المبحث الرابع

وجوب طاعته والاقتداء به ﷺ وبأخلاقه، وبخاصة رحمته ﷺ، وآثار ذلك

أولًا: وجوب طاعته والاقتداء به ﷺ وبأخلاقه، وبخاصة رحمته ﷺ:

بعد أن كرَّم الله وجهَ حبيبه محمد ﷺ بالنبوة، وجاء بها بيضاء نقية، نسخ بها الشرائع السابقة التي حُرِّفت وبُدِّلت- لا يُقبل من أي أحد كائنًا من كان أن يدين بدين؛ إلا بما جاء به محمد الأمين ﷺ.

قَالَ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[1].

ثم من آمن به ﷺ ورضي به نبيًّا ورسولًا- كان من حقه ﷺ عليه: محبته وطاعته واتباعه وتوقيره من غير إفراط ولا تفريط، أي: من غير غلو ولا جفاء- كما هو معتقد أهل السنة والجماعة- ونصرته، ونشر دينه، وتعلم سنته وتعليمها، وإظهار هديه، وإعلاء شريعته.

إذ هو الداعي إلى صراط ربه، الهادي الخلق إليه، ففي الحديث: «... **فَالدَّارُ الجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ أَطَاعَ الله، وَمَنْ عَصَى**

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ»[1].

وهو الوحيد الذي جعل الله تعالى طاعته مُوجبة لدخول أمته الجنة؛ وقد قال ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَنْ يَأْبَى! **قَالَ**: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[2].

وأوجب عليهم الاقتداء والتأسي به؛ قال تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ابن كثير: «هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله»[3].

وقال تعالى: ﴿**وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ**﴾ [الحشر:٧].

وقال جل في علاه: ﴿**وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور:٦٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٩١).

فلقد جعل الله تعالى رسوله ﷺ قدوة ونموذجًا جسَّد هذا الدين الذي أُرسل به أعظم تجسيد، حتى عاش الناس مع هذا الدين ورسوله واقعًا حقيقيًّا بعيدًا عن الأفكار المجردة، فكان هذا الرسول عليه الصلاة والسلام خير قدوة للأمة في تطبيق هذا الدين؛ ليكون منارًا لها إلى يوم القيامة.

والمُتأمِّل في حياة البعيدين عن هديه ﷺ والقَالين لأخلاقه في هذا العصر- يرى أنهم قد أهدروا الحقوقَ، واستباحوا الحرمات، وسادتهم قوانين الغاب، وانتشرت فيهم الرذيلة، بعدما حاربوا الفضيلة، وجميعها معاول هدم ودمار على العالم- ويوقن أنَّ كل ذلك في الحقيقة من نتائج هجر الاقتداء ونبذ التَّخَلُّقِ بالأخلاق والقيم التي جاء بها الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

هذا، وإن كان الاقتداء به ﷺ في الهدي الظاهري والعبادات أمراً مطلوباً مُرغَّباً فيه، لكنَّ الأشق على النفوس والذي يحتاج إلى كبير مجاهدة- هو الاقتداء به ﷺ في تعاملاته وأخلاقياته، في رحمته بالخلق أجمعين؛ **﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾** [فصلت: ٣٥].

ولقد ابتلى الله من ادَّعى محبته بهذه الآية: **﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾** [آل عمران: ٣١].

قال ابن تيمية: «... فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ إِنَّمَا يُحَبُّ لِأَجْلِ الله، وَيُطَاعُ لِأَجْلِ الله، وَيُتَّبَعُ لِأَجْلِ الله»[1].

ولقد أمَرَ الله بطاعته المُطلقة إذ هو لا يأمر إلا بما يرضي ربه سبحانه، ولا ينطق عن هوى؛ فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢].

ولقد ترجم الصحابة الكرام محبَّتهم لرسولهم ﷺ باتباعهم الصادق له، وتضحيتهم الباهرة من أجله، ووفائهم له حتى بعد أن لحق بالرفيق الأعلى، فماتوا على ما مات عليه ﷺ.

وعلينا إن أردنا الفلاح في الدارين أن نصنع صنيعهم ونحذو حذوهم؛ فإن على أفراد الأمة بكل فئاتها وطوائفها: اتباع أخلاق النبي ﷺ بشمولها، دون تفرقة أو تجزئة؛ والتعامل بها في كل مكان وفي كل زمان، ومع جميع الخلق، كما تعامل النبي الأمين ﷺ.

قال الغزالي: «اعلم أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حيًّا وميتًا، وفعلًا وقولًا، وجميع أحواله عبرة للناظرين، وتبصرة للمستبصرين، إذ لم يكن أحدٌ أكرمَ على الله منه، إذ كان خليلَ الله وحبيبه ونجيَّه، وكان صَفِيَّه

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٤٩)، تحقيق: أنور الباز- عامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

ورسولَه ونبيَّه»[1].

وإذا كان نبينا العظيم ﷺ رحمة مهداة من قِبل ربِّنا الرحيم الـذي أرسـله رحمة للعالمين، كان لزامًا على أتباعه أن يقتدوا به اقتداء حقيقيًّا، وألا يحيدوا عـن هديه قِيد أنملة، إذ هم مشاعل الرحمة الذين قد حملوا رسـالة الرحمـة بعـد نبـيهم ﷺ؛ ليبلغوهـا للعـالمين؛ فيفـوزوا بـذلك الفـوز العظـيم، ويُسـعدوا غـيرهم بدخولهم في هذه الرحمة، فيَسعدوا جميعًا في الدنيا والآخرة، ويَظهر على الدين كلِّه دينُ المبعوث رحمة للعالمين.

وهذا الاقتداء الحقيقي بالنبي ﷺ يتطلَّب منَّا:

١- معرفة قدره ومنزلته ﷺ.

٢- محبته وتقديمه على النفس والمال والولد.

٣- معرفة أخلاقياته، التي وجب علينا اتباعه فيها، كلٌّ بحسبه.

٤- وعيًا بالدروس العظيمة التي نستلهمها من حياته.

٥- التدرُّج بالنفس شيئًا فشيئًا حتى تكون صبغتها الدائمة هي الحياة عـلى الهدي النبوي.

٦- الاسترشاد بمواضع القدوة في سير أصحابه المكرمين الذين اقتدروا به

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٦٨، ٤٦٩) دار المعرفة، بيروت.



ﷺ، والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين.

٧- التزام الصحبة الصالحة التي تُعين على الثبات على هذا الطريق القويم.

٨- العلم اليقيني بأن هذا هو سبيل سعادة الدارين.

٩- الإكثار من الصلاة والسلام على هذا النبي الخاتم القدوة ﷺ.

١٠- الدعاء الصادق بالثبات على هذا السبيل حتى لقاء الله تعالى، وصحبة الحبيب الرءوف الرحيم ﷺ في أعالي الجنان.

ثانيًا: آثار الاقتداء به ﷺ، والتخلق بأخلاقه المباركة:

١- الفوز بمحبة الله؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذه منتهى آمال المؤمنين!

٢- دخول جنة الدنيا؛ بوجود حلاوة الإيمان في القلب؛ قال ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[1].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

يقول ابن القيم: «وإذا كانت سعادة العبد في الدارين مُعلَّقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف مِن هديه وسيرته وشأنه ما يَخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عِدَاد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مُستقل ومُستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»(١).

٣- لزوم الهداية؛ قال تعالى: ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ [النور: ٥٤].

٤- الأمن من الفتنة والعذاب: قال تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور:٦٣].

٥- مرافقته ﷺ في الجنة؛ قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء: ٦٩].

وقال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا**»(٢).

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٦٨) مؤسسة الرسالة، بيروت- مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠١٨) من حديث جابر ﷺ، وقال: «حسن غريب».

وهذه وحدها كافية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد- أن يبذل وُسعه في الاقتداء به ﷺ، والعيش على سنته؛ ليكون رفيقه في الفردوس الأعلى في الجنة.

٦- **النصرة للمسلمين والتمكين للدين**؛ فالإنسانية كلُّها تتطلع إلى مثلٍ أعلى تقتدي به، ولن تجد سيرة لعظيم أو نبي معلومة جميع تفاصيلها، كاملة في أدق أمورها، شاملة لشتى نواحي الحياة- غير سيرة النبي العظيم ﷺ.

وما صِرنا إليه في هذه الآونة من قزامة وانهزامية ومَذَلَّة بتداعي الأمم علينا من كل حَدَبٍ وصَوْب، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها- ما هو إلا نتيجة حتمية لبُعدنا عن دين الله تعالى، وتفريطنا في التمسك بما كان عليه رسول رب العالمين؛ وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، والله تعالى لا يحابي أحدًا من خلقه تقاعَسَ عن نصرةِ دينه، والعضِّ على ما جاء به نبيه، مهما ادعى لنفسه من أنواع المحاباة.

فإذا اقتدينا به ﷺ في جميع مناحي حياتنا، وتخلقنا بأخلاقه، وحوَّلنا ذلك إلى واقع ملموس في دنيا الناس- لا شك أن ذلك سيثمر آثاره الطيبة المباركة علينا، وعلى الناس أجمعين، وسنعيد مجدنا المسلوب وعزنا المفقود، وسنحيا رجالًا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، كما كان صحابته الأبرار الذين رباهم بيديه، فَلَنِعْمَ المُعلم ولنعم التلاميذ؛ فنالوا رضاه ﷺ، و رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وتخرجوا في الجامعة المحمدية بهذه الشهادات والأوسمة، التي قلَّدهم إياها ﷺ؛ فقال: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالحَلَالِ وَالحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيٌّ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ**»[1]. وغيرهم كثير وكثير.

فهؤلاء وغيرهم ممن سار على دربهم هم ممن شملهم جميعًا موعودُه سبحانه الذي لا يتغير ولم يتبدل بالنصر والتمكين في كل عَصر ومِصر: ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ**﴾ [النور: ٥٥].

فمما لا شك فيه أن الله لا يُمكِّن لعباده إلا بعد أن يحققوا الإيمان، بأن يرضوا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، وبمقتضى هذا الإيمان يعملون الصالحات التي شرعها لهم نبيهم المبعوث رحمة للعالمين، ومنها التخلق بأخلاقه العلية.

فمن أراد النصر والتمكين والعودة إلى سالف العز والمجد، فهذا هو

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩٠)، من حديث أنس ﷺ، وقال: «حسن غريب».



السبيل ما زال وسيظل أوضح من الشمس في رائعة النهار.

فإن فعلنا عَرَفَ العالمُ المخدوع عظمةَ نبينا محمد ﷺ، وكشفنا الغطاء من على أعين من عَموا عن الحق أو تعاموا ببيان سيرة نبي الرحمة الناصعة وأخلاقه السامقة، التي سيجد الجميع- حتى ولو لم يسعد باتباعه ﷺ أن له فيها نصيبًا، ومن ثَمَّ لن يخاف من الإسلام وانتشاره، وسيرةُ الحبيب ﷺ وتاريخ أصحابه ومن بعدهم وفتوحاتهم - خير شاهد على ذلك.

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وسنفتح بإذنه سبحانه البلاد وقلوب العباد، كما فتحها سلفنا بِعَضِّهم على ما جاء به نبينا ﷺ.

***

الخاتمة

ما أحوج الناس إلى هذا الخُلق العظيم، في هذا العصر المتلاطم الأمواج، الذي صارت سمته البارزة تلك المشاهد المأساوية التي نعاينها على مدار الساعة، ما بين القتل والتشريد والحرمان والفقر.

وما أحوج الأمة الآن أن تحوِّل خُلُق النبي ﷺ إلى منهج حياة، وإلى واقع يتجلى سموًّا وروعة وجلالًا، وألا نكتفي بالكلام، أو سرد السيرة على أنها رواية من سالف الزمان.

إنَّ العالم اكتوى بنيران الكفر والإلحاد والشرك والفساد، والمسلمون وحدهم هم الذين يعلمون سبيل النجاة وسفينته.

لكن فشل المحامون في عرض أعدل قضية وأبينها!

ولم يَرُعْهُم إلا الإساءة إلى درة تاج الجنس البشري ﷺ؟!

وأنا على كامل اليقين بأن من فعلوا ذلك لم يعرفوه ﷺ حقَّ المعرفة، ووالله لو عرفوه لكان لهم معه شأن آخر!

وإذا كانت رحمة نبينا ﷺ بهذه المنزلة التي بينتُ طرفًا يسيرًا جدًّا منها،



وكانت أخلاقه بهذا الكمال، فما الذي جرى لنا؟!

فلنعلم يقينًا أننا لن نستطيع تحقيق أي نفع للإسلام، ولن نثبت على هذا الدين؛ إلا باتباعنا لهذا النبي الأمين ﷺ.

فإن فعلنا فُزنا وربِّ الكعبة، وإنْ تولينا استبدل ربُّنا قومًا غيرنا ليسوا أمثالنا؛ نعوذ بالله من الخذلان.

التوصيات:

١- الدعوة إلى عمل موسوعة شاملة في السيرة، ثم ترجمتها إلى الممكن من لغات العالم- تعتني بالدروس والعبر المستفادة منها، وتركِّز على الجوانب التربوية، ومعالم القدوة فيها، مُؤَصِّلة لما يجب على العبد اعتقاده تجاه نبيه ﷺ، بعيدة كل البعد عن الإسهاب والحشو والسرد التاريخي، خالية من الضعيف، بله الموضوع وما ليس له أصل، مقيمة الحجج الدامغة على المخالفين المشككين، دافعة بكل برهان ما قد يستغله الأعداء لتشويه صورة الإسلام والطعن في نبينا ﷺ.

٢- السعي لإطلاق قناة فضائية خاصة بسيرته ﷺ وشمائله وخصائصه وأخلاقياته، ولتحمل مثلًا اسم: «سيد البشر»، أو «رحمة للعالمين»، أو «الرحمة المهداة»، وترجمة برامجها إلى اللغات الأخرى لدعوتهم؛ وإقامة الحجة عليهم بأن النبي ﷺ لم يأت للعرب فحسب.

٣- اغتنام التقنية العلمية الهائلة في وسائل الاتصالات التي حوَّلت العالم إلى قرية صغيرة، وعكوف المجتهدين فيها لابتكار أحدث ما يمكن أن ننشر به الدين، وننصر به النبي الأمين ﷺ من إنشاء مواقع متميزة، وإرسال رسائل لغير المسلمين عبر الهواتف والبريد الإلكتروني، وغير ذلك.

٤- إقامة مؤتمرات علمية، كهذا المؤتمر المبارك ودعوة أصحاب الرأي والفكر إلى حضوره، واختيار أفضل البحوث، ودمجها في كتاب، ومن ثم ترجمته، ونشره، وبث هذه اللقاءات عبر القنوات الفضائية والمواقع الإلكترونية ليعم النفع.

٥- عقد مناظرات بين العلماء المسلمين ورجال الدين من غيرهم؛ لإزالة الشبهات العالقة في قلوبهم تجاه الإسلام ونبينا الهمام ﷺ.

٦- إرسال الدعاة المتميزين إلى البلاد التي لا تدين بالإسلام ودعمهم، والعمل لتنشيط المراكز الإسلامية هناك لتقوم بمهمتها المنشودة.

٧- إنشاء مركز لتفقيه المسافرين إلى هذه الدول غير الإسلامية، وتعليمهم آداب معاملة المُخالفين، وأنهم سفراء للإسلام في هذه البلاد.

٨- توعية المسلمين بالتعامل مع المعاهدين والمستأمنين في بلادهم ومن لهم حق المواطنة والجوار من غير المسلمين.



٩- إعادة النظر في مناهج التعليم في البلاد الإسلامية وإثراؤها بسيرة نبي الرحمة ﷺ، ونماذج من أخلاقياته، في جميع مراحل التعليم المختلفة.

١٠- ينبغي أن يُعلم أن فريضة الوقت هي نصرة نبي الرحمة ﷺ، كلٌّ بما يستطيع، وبما خوَّله الله تعالى، فلتكن صحوة للرجوع إلى هديه المُشَرِّف ﷺ، وليظهر هذا في أخلاقنا، ومدارسنا، وجامعاتنا وصحفنا، وإعلامنا وثقافتنا...

هذا كله بالطبع بالحكمة والموعظة الحسنة ورحمة المخالف والجاهل- تأسيًا بنبي الرحمة عليه الصلاة والسلام، مع ملازمة الإخلاص لله تعالى، والاستغفار من التقصير والتفريط.

وفي الختام أسأل الله أن يحشرنا مع نبينا المصطفى ﷺ وآل بيته الكرام وصحابته العظام، وأن يغفر لي ولوالديَّ ولمشايخي وللمسلمين والمسلمات يوم يقوم الحساب؛ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد المبعوث رحمة للعالمين.

* * *

الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها (سنن)



هاتف : ٢٥٨٢٧٤٩ – ١ – ٠٠٩٦٦

فاكس: ٢٥٨٢٧٤٣ – ١ – ٠٠٩٦٦

المملكة العربية السعودية

ص . ب ٤٦٨١١ الرياض ١١٥٤٢

www.sunnah.org.sa
sunnah@sunnah.org.sa